

سليمان عليه السلام

سليمان وبلقيس

اتجهت همه نبي الله سليمان إلى بناء بيت المقدس بالشام، تسهياً لأسباب العبادة، وقراباناً إلى الله؛ فنشط حتى أقامه عالي الأركان، شامخ البنيان، ولما تم له ذلك اطمأن قلبه، وسكنت نفسه، ثم نزعت إلى أن يؤدى فريضة الله، فلا بد له إذن أن يتهيأ للحج في حشد عظيم.

يَمّم النبي شطر الحرم، فوفاه، وأقام به ما شاء، حتى إذا وفى نذره شد رحله وفارقه، ثم جد به السير نحو أرض اليمن؛ فدخل أرض صنعاء^(١)، وأخذ يتفقد الماء، ويتفقد منافذه، ويسبر أغواره، فأعياه البحث، واستعصى عليه المنال.

لذلك خف سليمان، فتفقد الطير باحثاً عن الهدهد ليدلّه على الماء، فوجده من الغائبين؛ فأقسم ليعذبّه أو ليدبحنه، إلا أن يأتي بحجة واضحة، يمهد به لعذره، ويزيل ما يحالج النفس في أمره، ولكن الهدهد غاب غيبة قصيرة، وعاد يخفض رأسه وذنبه تواضعاً لسيدّه، وتقدم إليه يتزع من نفسه ما عسى أن يكون قد ألم بها من غضب عليه، أو كيد إليه، تقدم الطائر فقال: لقد اطلعت على ما لم يمتد إليه علمك، ولم تصل إلى الإحاطة به أسباب قوتك وملكك، وكشفت سرّاً نذ عنك أمره^(٢)، واختفى خبره.

فخفف هذا الحديث المشوق ما كان من حدة سليمان، وبعث إلى نفسه كثيراً من التلهف والاستعجال ذلك الحديث المستحسن الجذاب، فاستحث الهدهد أن يأتي بخبره، وأن يدلّ بحجته وعذره.

فقال الهدهد: وجدت في أرض سبأ^(٣) امرأة تملكهم، وقد أوتيت من كل شيء

(١) صنعاء: أحسن بلاد اليمن.

(٢) نذ عنك أمره: بعد وغاب.

(٣) سبأ: أرض باليمن مدينتها مأرب.

ولها عرش عظيم، إلا أن الشيطان قد استبطنهم^(١)، وخالط منهم اللحم والدم، والمسامع والأطراف، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون؛ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، فهالني أمرها وروّعي شأنها، وما كان أجدرهم، وأولى بهم - وهم أولو القوة والمجد - أن يسجدوا لله الذي يعلم ما تكبر الجوانح؛ لا إله إلا هو رب العرش العظيم!!

دُهِش سليمان لهذا الأمر العجيب، وقد رأى ألا يفجع الهدهد في خبره، وألا يردّ عليه قوله: بل قال له: سننظر في نبيك، ونتحقق أمر صدقك من كذبك، وإذا كان الأمر كما وصفت، والحق كما صورت، فهذا كتابي، اذهب به فألقه إليهم، ثم تنحّ إلى مكان تنتظر رأيهم، وترتقب جوابهم.

حمل الهدهد الكتاب، ثم سار إلى بلقيس، فألفاها بقصرها في مَآرِبِ^(٢)، فطرح الكتاب أمامها، فتلَقَّفته وقرأته، فإذا فيه ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٦﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾^(٣).

فجمعت الملكة وزراءها وأمراءها، وأكابر دولتها إلى مشورتها، لتطيّب نفوسهم، لاعتدادها بهم ورؤيتها إليهم، ولكي تعتصم بحكمهم، وتستظهر برأيهم، فقالوا: نحن أبناء حَرْبٍ وَجِلَادٍ، لا أهل رأي وسداد، وقد تركنا أمورنا لتديريك وشؤوننا لتفكيرك؛ فانظري ماذا تأمرين نحن طَوْعَ بَنَانِكَ وَرَهْنَ كَلَامِكَ.

لمحت الملكة في كلام رجالها ميلاً إلى الحرب والمدافعة، فزيّفت كلامهم، وخطأت رأيهم، وأبانت لهم أن الصلح خير، وأن الأجدر بذوي العقول الصائبة أن يبدءوا بالتي هي خير لهم وأحسن، فقالت: إن الملوك إذا غلبوا قرية، ودخلوها غنوة حَرْبُوهَا: فأبادوا حضارتها، وجعلوا أعزتها أذلة، وتحكموا في الرقاب، واشتطوا في الاستبداد؛ ذلك دأبهم ما تعاقبت الأيام، وتوالت الأزمان؛ وإني مُرْسِلَةٌ إلى سليمان بهدية، فيها من كان غال وثمانين، ونفيس وكريم، أصانعه بها على ملكي، وأتبين بها سبيله، وأتعرف منها نهجه.

(١) استبطنهم: صار في بواطنهم وهو لهم كبطانة الثوب.

(٢) مآرب: بلاد الأزرق باليمن وهي بين صنعاء وحضرموت (معجم البلدان: ٣٤/٥).

(٣) سورة: النمل، الآيتان: ٣٠ و٣١.

ثم جمعت هدية بعثت بها مع رجال من كرام القوم. فانتقل الرسل بالهدايا، وأقبل الهدهد إلى سليمان يئسه الخبر؛ فاتخذ سليمان للأمر عُدَّتَه، وقدم لما بعده أُهْبَتَه، لذلك أمر الجن فزينوا له بناءً عجيباً، وصرحاً مشيداً، يهزُّ الأفئدة، ويبهزُّ الأعين، ويدهش القلوب.

فلما دنا القوم نظروا فبُهِتُوا، وأقبل عليهم سليمان بوجه طلق، يرحب بقدمهم ويتهلل للقائهم، ثم بدأ يستشف غَرَضَهُمْ، ويتعرف رأيهم، فقال: ما رواءكم؟ فتقدّموا بما حملوا من هدايا ونفائس، يبتغون بها رضاً وقبولاً من النبيِّ الكريم.

فَعَفَّ سليمان وتَلَطَّفَ، وقال للرسول: ارجع إليهم بهديتهم؛ فإنَّ الله أعطاني الرزق السخي، والعيش الرضي، ومدَّ لي أسباب النبوة والمُلك وأتاني ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، وكيف يرضى مثلي أن يُمدَّ بمال يُصانَع به، أو كيف يليه عن نشر دعوته ملءُ الأرض ذهباً؟! إنكم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فأنتم بهديتكم تفرحون؛ ارجع أيها الرسول إليهم، فلنأتينهم بجنود لا قبيل لهم بها، ولا قدرة على احتمالها، ولنخرجهم من سبيلِ أذلة، ذاهباً عنهم العزّ والمُلك والسلطان.

ذهب الرسلُ فأخبروا بلقيس بما رأوا وما سمعوا؛ فقالت: ليس لنا بُدٌّ من السمع والطاعة، ولنبادر إلى إجابته، ونسارع لقبول دعوته.

فلما سمع سليمان بقدمهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن سُخِّرَ له من الجن: أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مُسلمين؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن ينقضني مجلسُ حكمك، فتقوم من مقامك، وإني لذو قوة على إحضاره، وأمينٌ على ما فيه. قال الذي أوتي العلم والحكمة: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك ظرْفُكَ.

أراد سليمان عرش بلقيس أن يكون عنده فكان، فقال: هذا من فضل ربي عليّ، وتلك نعمةٌ من نِعَمِهِ إليّ، ليلوَنِي^(١) أشكر أم أكفر؟ ومَنْ حسنت النعمة لديه، وصادفت من قلبه مكاناً طَهَّرَتْ حواشيه، وسكنت نوازيه، فشكر ربه فإنما يشكر لنفسه، لأن مرجع الشكر إليه. وأما مَنْ كفر بنعمة ربه، وَخَبَّتْ سريرة نفسه فإنما هو من الذين خسروا الدنيا

(١) بلاه: اختبره.

والآخرة، والله غني عن العالمين. ثم قال سليمان لجنوده: نَكُرُوا^(١) لها عرشها، وَغَيِّرُوا رُؤَاةَهُ لِنَنْظَرِ: أتهتدي إليه أم تكون من الذين لا يهتدون؟

فلما جاءت قيل: أهكذا عَرْشُكَ؟ فاستبعدت أن يكون ذلك عَرْشَها، وقد خَلَفَتْهُ بأرض سبأ، ولكنها رأيت معالمه، وتبينت آياته ومحاسنه، فَدُهَشَتْ لذلك الأمر الغريب، وقالت: كأنه هو، ووقفت مشْتَةً الْفِكْر، حائرة القلب، والهة الفؤاد.

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج أبيض، ثم دعا ملكة سبأ إليه، فلما رآته حَسِبَتْهُ لَجَّةً^(٢)، فكشفت عن ساقِها؛ قال: إنه صرح ممرّد^(٣) من قوارير. فانكشف حجابُ الغفلة عنها، وقالت: ربِّ إني ملّت حيناً عن عبادتك، وضللت بعض الزمن عن رحمتك، فظلمت نفسي، وحبستها عن نورك، والآن قد أسلمت مع سليمان، خالصةً لك، متوجهة إلى طاعتك، وأنت أرحم الراحمين.

حكمة سليمان

هذا داود عليه السلام قد استوى مَلِكاً على عرش بني إسرائيل يحكم فيما شَجَرَ بينهم، ويصَرِّفُ أمورهم، ويرعى وَحَدِثَهُمْ ومعاشرهم، وهم يغدون إليه يقصون قصصهم، ويبسطون خصومتهم، ويُدُلُّون بحججهم، وهو يفصلُ في كل ذلك بالعدل والقسطاس.

وهذا ابنه سليمان لَمَّا يَكْتَمَل، فهو في الحادية عشرة من عمره، ولكن أباه قد أصبح شيخاً هَمًّا^(٤)، أو شكت شعوب أن تخترم أجله، فهو دَائِبُ التَّفَكِير في أمر قومه مهتم بمن تكون له الولاية من بعده، يرى أبناءه من حوله، وسليمان - وإن كان صبيّاً - إلا أنه يفضلهم علماً وحكمة، قد نضجت شمائله، واكتملت بوادره، يصَرِّفُ الأمور تصريف الناقد الحازم، البصير النظَّار^(٥).

(١) نَكُرُوا: أي غيروا إلى حال تنكره إذا رآته.

(٢) لجة: من الماء.

(٣) ممرّد: مملّس.

(٤) الهَمُّ: الشيخ الكبير الفاني.

(٥) النظَّار: الشديد النظر.

جرت سِنَّةُ داودِ علي أن يُخَضِرَ خصومته ابنه سليمان، حتى تزداد قوته، وَيَسْتَحْصِفَ رأيه، فكان سليمان ملازماً لأبيه في مجلسه، حتى يكون له من آرائه فيما بعد نور يمشي به، ودستور يسير عليه في مشكلات الملك ودقائق التدبير.

وفي مجلس من مجالس القضاء جلس النبيُّ الملك داود، وجلس بجانبه ابنه سليمان، فأتى خصمان، قال أحدهما: إن زرعاً له قد أتى ثمره؛ ودلت قطفه، وصار بهجة الناظر، وعتاد الزارع، انتشرت فيه غنم خصمه، ولم يردها راداً، يُحكَم وثاقها راعٍ؛ بل سَامَتْ، وانسابت في الرزق ليلاً، فأهلكته وأبادته حتى صار أثراً بعد عين.

قال صاحب الزرع ما قال، ولم يدفعه صاحبُ الغنم بحجة ولا دليل، فلزمتُه الخصومةُ، وَحَقَّتْ عليه كلمة القضاء.

حكم داود بالغنم لصاحب الزرع يأخذها خالصة له كِفَاءَ زرعِهِ، وجزاء إهمال أصحابها الذين تركوها فَنَفَسَتْ^(١) في الزرع بالليل، ولكن الصبي سليمان - وقد آتاه الله علماً وحكمة، وأوقفه على دقيقات هذه الخصومة، وَجَمَلَهُ بالرأي فيها تهيةً منه ليتولى ذلك الملك العريض - انبرى في مجلسه، وفك عقال صمته، وانفلتت إلى القوم حجته، فقل: غيرُ هذا أرفق، ودون هذا أوفق.

فدهش القوم لجراءة الغلام، وانتظروا صامتين ما وراءه، فقال: تُدْفَعُ الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها، وتسلم الأرض إلى أصحاب الغنم يقومون على زراعتها، حتى تعود كما كانت، ثم يترادان، فيأخذ كلُّ ما كان تحت يمينه، وبذلك لا يكون هناك غُنْمٌ ولا غُرْمٌ، فهذا أقربُ إلى العدل وأصحُّ في الحكم، وأولى في القضاء.

كان هذا مبدأ لظهور أمر النبي سليمان، الذي كان خير خلفٍ لأبيه.

* * *

سليمان على عرش أبيه

داود يهيبُ ابنه سليمان ليُكون خليفةً من بعده مع ما هو عليه من حداثة السنِّ

(١) نفست الماشية في الزرع: انتشرت فيه ورعته ليلاً.

وَعَضَّاضَةُ الْإِهَابِ^(١)، ولعله قد أخذ بأبهة العرش وازدهى بعزته، فخالط قلبه الفخر، وامتدَّ أمله إلى التعلق بغرض من أغراض الحياة، وذلك - وإن يكن غَرَزِيًّا في بني الناس - إلا أنه كثير على مَنْ مُنِحَ هبة النبوة، واصطفاهُ اللهُ لهداية العالمين. وهذا ابنُ آخر لداود: هو أبشالون قوي عتيد، قد استوى ساقه، وَعَرَكَ تجارب الدهر، وَعَرَفَ دخائل الأمور، ومع ذلك فهو مَقْصِي عن المُلْكِ، مُبْعَد عن الخلافة والسلطان.

وذلك تدبير لا يُرضي أبشالوم، ولا يطمئن إليه، فهو لذلك سيشقُّ عصا الطاعة خارجاً عن أبيه وأخيه، وَسَيَكْفُحُ ويناضل في سبيل هذا الملك، مهما يكلفه ذلك من عزيز.

استمرَّ أبشالوم رَدْحًا^(٢) من الزمن يتقرب إلى قومه بني إسرائيل، وَيَغْمِرُهُم بعطفه، وَيَقْضِي بينهم، ويصلح أمورهم ويجمع شملهم حوله، انتظاراً لأمر يدبره وعمل يبيته، حتى لقد غالى في أمره، فكان يقفُ بباب أبيه الملك يصدِّ عنه كل صاحب حاجة ليقضيها له بنفسه، ليكون له على كل إسرائيل مِنَّةٌ ويد، ليعرفهم أنه صاحب حَوْلٍ وطَوْلٍ، حتى يكونوا إليه نازعين، ولرأيه خاضعين.

بعد أن أعدَّ أبشالوم عُدته، ودبَّرَ مكيدته، واطمأن إلى أنه قد استرقَّ قلوب بني إسرائيل، واستولى على زمامهم - بعد ذلك استأذن أباه داود في أن يخرج إلى «جدون» ليؤفي بنذرٍ هُناك؛ ثم أرسل جواسيسه في أسباط بني إسرائيل قائلاً: إذا سمعتم بُوقاً ينذر بجمعكم فانفروا إليَّ وأعلنوا المُلْكَ لي فذلك خير لكم، وأوفئْ لحقوقكم، وأمكِّن لسلطانكم. ثار الشعب واشتدت الفتنة، وتزايد الصَّحْبُ، وهبَّت على أورشليم^(٣) ريح هُوْجاء توشكُ أن تأتي على الأخضر واليابس.

علم داود بالخبر، فكان شديداً عليه، إلا أنه ربط جأشه، وملك نفسه، ثم قال لمن حوله: هيا بنا نهرب، لأنه ليس لنا نجاة من بطش أبشالوم، ثم عبر هو ورجاله وأهل بيته نهر الأردن، وصعد داود إلى جبل الزيتون باكياً حافياً، هو والذين معه.

(١) الإهاب: الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل دبغه وهنا بمعنى الجلد.

(٢) رَدْحاً: مدة طويلة.

(٣) أورشليم: هو اسم بيت المقدس بالعبرانية.

وكان نَفْرٌ قد شمتوا بداود، فتألبوا عليه يسبُّونه، ويؤلِّمونه بقوارس الكلم، فهمَّ بهم خلصاؤه إلا أنه منعهم في ألم وحسرة قائلاً: إذا كان ابني يطلبني فما أحرى غيره بذلك!

ثم تقدّم داود إلى الله في ضراعه وذلة: أن ينجيه مما حاق به، وأن يكشف عنه البلاء المحيط.

دخل أورشالوم بعد مخرج أبيه إلى أورشليم وامتلك نواصي الأمور. ثم أرسل داود قواده، وأوصاهم أن يعالجوا الأمر بالروية والحكمة، وأن يحقنوا دم ابنه أورشالوم ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل، إلا أن القدر قد دبر غير ما اشتهى الوالد الرحيم، فقد دخل القواد إلى أورشالوم ولم يروا إلا قتلتَه، فكنت الفتنة، واستراح الناس. ورجع الملك إلى داود ومن بعد لابنه سليمان.

قرّ سليمان في ملكه، ووهبه ربه ملكاً عريضاً. وجأهاً وسيعاً، وسخر له الريح تجري بأمره، وتسير بمشيئته ورأيه، وعلمه منطق الطير فكان يتفاهم بأصواتها، ويتتبع بمواهبها، ويطمئن إلى أخبارها.

وأسأل الله له عيناً مُصْطَهرة، تقذف النحاس من باطن الأرض، فيقبل عليه صنّاعه من الجن للانتفاع به في شتى أعمال الإصلاح والتعمير، ومن الجن من يعمل له ما يشاء من محارِبٍ وتمائيل وجفانٍ كالجوابي^(١) وقدور راسيات.

* * *

ورث سليمان داود في نبوته وملكه؛ وآتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمه منطق الطير، وسخر له الشياطين، وأطلق بأمره الريح، فكان يعرف تخاطب الطير بلغاتها، ويعبّر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

ولقد ركب نبيُّ الله الملك يوماً في حَشْدٍ، عظيم من الإنس والجن والطير، وحتى نزل أرض عسقلان^(٢) فأتى على وادي النمل، فبصّرت به - على بُعد - نملة من الشمال،

(١) الجوب: الدلو الضخم.

(٢) عسقلان: مدينة على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين.

فارتاعت لذلك الحشد، وخافت على قومها أن تدوسهم جنود سليمان فتحطمهم، فأهابت بهم: أن ادخلوا مساكنكم حتى لا تذهبوا ضحية سليمان وجنوده وهم لا يشعرون.

سمع سليمان قولها، وعرف مرادها في نذاتها، فتبسم ضاحكاً لقولها، سروراً بما ألهمه الله من قوة يدرك بها هذا المنطق العجيب، وأعجاباً بما تجلّى في قول النملة من شعور وإدراك، لأنها أيقنت أنه نبي، والأنبياء لا يؤذون خلق الله إلا إذا كانوا لا يشعرون.

طلب نبيُّ الله من ربه أن يقبضه لشكره على ما أنعم عليه من عطية، وما خصه به من مزية، وأن ييسر له سبيل الأعمال الصالحات، فيهيء له من أمره رشداً، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين.

قضاء الله في بني إسرائيل

استشرى الفساد في بني إسرائيل، وتهافتوا في حَمَاة الضلال، وفشا بينهم العِصيان، واضطرب جبل الأمان، ولم تعد للرحمة مكان في نفوسهم، ولا لهيبة الأنبياء نصيبٌ من قلوبهم، أما أحبارهم وقُرَاؤهم فقد أنكروا حق الله، وأما ولاتُهم فقد كذبوا الرسل، ونبذوا وراء ظهورهم الكتاب، كتاب الله! فاستحقوا من الله أن يُذيقَهُم العذاب، وأن يوقَعَ عليهم شديد العقاب، ولكنه - سبحانه وتعالى - أعَدَّ من أن يأخذ قوماً بالعذاب قبل أن يُرسل إليهم النذير، أو يعاقب طغاةً ظالمين قبل أن يبيِّن لهم وجه الطريق.

وكان «أرمياء» نبياً من أنبيائهم، ورجلاً من صميم بيوتهم، فوقف بينهم يصيح بكلمة الحق، ويصدع^(١) بأمر الله: أي قومي وأبناء عشيرتي، لقد طال فسادكم وعمّ داؤكم، وسخط عليكم ربكم. هذا كتاب الله وراءكم قد نبذتموه، وذلك حقّه فيكم قد جحدتموه، وقد علمتم نِعْمَه عليكم سابغة، وأبراد خيره فوقكم ضافية، والآءه عليكم ظاهرة وباطنة، قد مكن لكم في أرضه، وأنزلكم إلى حِمَى بيته. وفضلكم على العالمين.

لقد كان لكم بالأمس القريب عظة - وفي رحمته بكم عبرة، هذا سنحاريب نزع إليكم من بابل^(٢) في عَسفه وبطشه، وفي جنده وحزبه، وفي قوته وصبره، حاول أن يغزوكم في عُقر داركم، وأن يتغلغل في صميم بلادكم، ولو خُلّي بينه وبين ما يريد لأفنى عددكم، وأذهب جَمعكم، لكن الله رحمكم بنبيكم شعباً، فوقف إلى الله داعياً مُتَحَنِّناً، وإليه راغباً مُتَطَلِّباً: أن يصرف عنكم السوء، ويدفع الأذى، ويردّ ما يراد بكم من كيد، فاستجاب الله دعوته، وتقبّل كلمته، ورجع عدوكم مذموماً مدحوراً، يتعثّر في ثوب الخزي، ويتسرّب لُسُربال الهوان، بعد أن هلك جنده، ودبّت إليهم الأمراض وتخونتهم^(٣) الأسقام.

(١) صدع الأمر: بيّنه وجهر به.

(٢) بابل: اسم ناحية منها الكوفة والحلة.

(٣) تخونتهم: أضعفتهم وأنهكتهم.

وماذا كان جزاءً شعياً فيكم، وماذا كان مقامه في نفوسكم؟ لو كان في قوم غيركم يرعون الجميل، ويحفظون يد الكريم - لظل دهره بينهم مرعي الجانب، مسموع الكلام، ولكن يا حسرة عليكم، وياؤساً لصنيعكم! لقد أهتتموه وخذلتموه، ثم قتلتموه وذبحتموه، فأرقتُم منه دماً زكياً، وأهتتم كريماً أياً!! وصعدت روحه إلى الله طاهرة مقدسة، مبرورة مكرمة، تشكو إلى الله الجور والطغيان، وتبرأ إليه من العقوق والكفران.

ثم ما زلتُم أنتم هؤلاء: تظاهرون بالإثم، وتواصلون بالعدوان، ولا تتناهون عن منكر تفعلون، كأن التوراة لم تهذب من نفوسكم، وكأن الرسل تنادي في غير دياركم!!

اسمعوها كلمة صادقة وتلقوه إنذاراً حاسماً: لقد أوحى الله إلي أن أدعوكم إلى الحق وأنذركم العذاب والعقاب: لئن لم تُفيقوا من سكرتكم وترجروا غراب جهلكم، وترجعوا إلى كتابكم تستمسيكون بعروته، وتحتكمون إلى آياته، وتعودوا قوماً صالحين، ليعثن عليكم عبيداً أشداءً وجنوداً أقوياء، بأسهم. شديد، وعزمهم حديد: لا تسكن الرحمة نفوسهم، ولا تعرف الرأفة سبيلها إلى قلوبهم، يأخذون بناصيتكم، ويرغمون أنوفكم، ثم يجوسون هذه الديار؛ فإذا تلك القصور التي تنعمون في ظلالها قد استحالت خراباً ياباً^(١)، وإذا تلك الآطام^(٢) المتراسة أصبحت شعاباً، وحدائقكم التي ترونها ذات بهجة تُضحى عريسات^(٣) أسود، وحقولكم تلك التي تجنون ثمارها تسمى مراض نمور وفهود، والمعابد التي خلقها الله روحاً لقلوبكم، ومثابة لنفوسكم، ليتهكن حرمانها وليستبحن عرصاتها^(٤). . وهكذا تُصبحون حراماً مستباحاً، وكلاً مباحاً، وأنتم بعد ذلك بين أسير وقتيل.

وقد نصحت لكم ما وسعني النصح. وأفصحت لكم ما استطعت الإفصاح، وأنتم بعد ذلك مفضون في الطريق التي تسلكون، وفي النهج الذي تنتهجون.

قال كبيرهم: أهذا الذي جمعت إليه حشدنا، ودعوت إليه لفيئنا؟ لقد كذبت على

(١) البياب: الخالي لا شيء فيه.

(٢) أطام جمع أطم: وهو الحصن.

(٣) عريسات جمع عريس: وهو الشجر الملتف يكون مأوى للأسد.

(٤) عرصات جمع عرصة: وهي البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

الله وأعظمت الفرية عليه! أكان الله الذي اخترنا من بين خلقه، واصطفانا لتلقي كتابه - أن يذهب مُلْكنا على يد كفار لا يعبدون إلا النار، ولا تعنوا جباههم إلا للأوثان! إنَّما ترجمُ بالغيب، وتتظنَّى بالمنكر، وتضرب في أودية الوهم والضلال.

قال أرميا: يا هؤلاء؛ إنما يُرسلهم الله عليكم معذيين، ويرميكم بهم معاقبين؛ كما يرسل الطاعون الجارف، أو السيل العارم، وما الفرق بين أن تصيكم دونهة تقطع دابركم أو يظهر عليكم ملك كافر يُدك ناصيتكم، ويمزق أوصالكم؛ وشهد الله أنني نصحتكم وما غَشَّستكم، فانظروا لأنفسكم، وتخيروا لأبدانكم. قالوا: جادلنا فأكثر الجدال، وكأنك رأيت رُعة الحلم وسبعة فأغريت بالكلام، وطائر الصدر ساكناً فبلغت في الملام، وما نرى لك إلا أن تغلَّ يداك وتصفد رجلاك، وتُرَمَى في سجن عميق، أو تنفى إلى مكان سحيق. وطلع الصباح وإذا بأرميا مُلقى في سجنه، مُصفداً مغلولاً!

وتلفتوا إلى الشرق يوماً، فإذا بالغيار يعلو حتى يبلغ عنان^(١) السماء وينعقد حتى يحجب الضياء، ويتكاثف حتى يملأ الأرض حُلوكَةً وظلاماً؛ ثم ينقشع هذا الغبار، ويتضح عن أشوس^(٢) مقدم، يقود جيشاً كقطيع الغمام، ما فيهم إلا حَمَس^(٣) جميع الفؤاد.

كان هذا بختنصر زحف عليهم من بابل، يريد بهم الشر، ويقصد لهم الهلاك، وهو نِقْسة الله أرسلها، وغضبتُه رمى بها، فمن الذي يستطيع صده؟ ومن الذي يقدر أن يقف جيشه؟ وتساءلوا: أهذا الذي خوَّفنا به أرميا؟ إن كان هو فقد حَلَّت الداهية ووقعت الكارثة.

ولم يمهلهم بختنصر حتى يتموا حدسهم، ويعرفوا ما وراء زعمهم؛ بل انقضَّ على المدينة وحشاً كاسراً، ومخرباً هداماً، جريئاً مقداماً؛ لم يصادف منزلاً إلا قوضه، ولا صرحاً إلا هدمه، ولا طريقاً إلا أخفى رُسومه، ولا قصرأ إلا محاً أعلامه.

وبيت المقدس انتهك حُرْماته، وأسقط شُرْفاته، وعطل العبادة في جنباته، أما القوم

(١) العنان: ما يبدو لك من السماء إذا نظرت إليها.

(٢) الأشوس: الجريء الشجاع.

(٣) الحماس: الشدة والشجاعة.

فقد حاطهم قتلاً وذبحاً، وأسراً وسبياً، ثم فرّقهم في الأرض بَدَا، وترك ديارهم خراباً يباباً.

كأن لم يكن بين الحجّون^(١) إلى الصفا أنيس ولم يَسْمُر بمكة سامر

ومرت أعوام، وتصرمت أجيال، واشتعبت بختنصر شعوب، وقُطعت أسبابه من الحياة، وتولى عرش بابل ملك خافضُ الجناح، سهلُ المقادة، لذن^(٢) العود، ورأى القوم من بني إسرائيل يزسفون في أصفاد الذل، ويغدون ويروحون تحت نير الهوان، فسأل: ما خطبهم؟ وما أسباب هوانهم؟ قالوا: إنهم أسلاف يعقوب، وأحفاد داود، وكانوا يُقيمون في الشام وبلادهم مشفوهة^(٣) الموارد، عذبه المناهل، وإن أباك قد أذل أبيهم، وأرغم حميهم، وفرّقهم في البلاد طرائق، وشرّدهم في الآفاق حزائق^(٤)، وضرب عليهم ما تراه من ذل وهوان.

فوجدت هذه الكلمات منه قلباً رحيماً، وصادفت عنده طبعاً كريماً، فنأدى فيهم: أن أجمعوا شملكم، ولموا شتاتكم، وضموا نشركم^(٥)، وثوبوا إلى بلادكم، وعودوا إلى ما كنتم فيه من شمل جميع، ونسج متلاحم.

ورجعوا إلى بلادهم، وردّ الله الكرة عليهم، وأمدهم بالأموال والبنين، وأخصب لهم الزرع، ونما الضرع، واطردت لهم أسباب السعادة والوثام.

وكان من حقهم أن يعتبروا بما كان، وأن يقابلوا النعمة بالشكران، ولكن أنى للنفوس التي طُبعت على الشر أن تستروح الخير، وتميل إلى الصلاح؟ وأنى لسلائل القوم الذين تماثلوا على يوسف، وأذوا موسى من بعده، أن تأنس نفوسهم إلى الاطمئنان، أو تنسى العدوان؟ فإنهم ما عتموا أن رجعوا أدراجهم إلى الشر، وأخذوا يحطّبون في حبال الظلم والبغي، حتى إذا قام فيهم زكريا ويحيى نبيين رحيمين، ورسولين كريمين، سفكوا

(١) الحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها.

(٢) لذن: لين.

(٣) شُفه الشيء: كثر طالبوه فهو شَفوه.

(٤) الحزقة: الجماعة من كل شيء.

(٥) النَّشر: القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس.

دمهما، كأن بنفوسهم عطشاً إلى الدماء، وكأن وترأ^(١) بينهم وبين الأنبياء، وعادوا إلى الشر والعدوان، وعاد الله بهم إلى المكر والانتقام؛ وسلط عليهم جودرز كما سلط على من قبلهم بختنصر؛ وأعاد الكرة عليهم من ذهاب ملكهم، وتخريب معابدهم، وهكذا مُزقوا كل ممزق، وتفرقوا تحت كل كوكب، وضرب الله عليهم أبلد الدهر ﴿الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(٢).

(١) وَتَرَّ فُلَانًا وَتَرَأَ: قتل حميمه.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦١.